ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة افاق للعلوم

Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351

المجلد:07 العدد: 01(2022) ص 225-238

إشكالية المواطنة في الفكر الإنجليزي

قراءة تحليلية في فلسفة توماس هوبز السياسية

The Citizenship Problem in English Thought

An Analytical Reading of Thomas Hobbes' Political Philosophy

خن جمال *

جامعة أحمد زبانة (غليزان)

Khenjamel3@gmail.com

زيان محمد

جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)

mohamed.ziane@univ-biskra.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:

21 ماي 2021

تاريخ القبول:

22 جوان 2021

الكلمات المفتاحية:

- ✓ الدولة:
- ✓ العقد الاجتماعي:
- ✓ المواطنة:

الملخص:

قديما اعتبر المعلم الأول أرسطو أن من أكثر المصائب التي يمكن أن تصيب المجتمعات هي زوال الدولة، لذا نجد اهتماما بالغا ومتزايدا بهذا الجسم السياسي خاصة في العصر الحديث ومن فلاسفة عصر الأنوار الذين جعلوا من مشكلة العقد الاجتماعي براديغم به يمكن تفسير المسائل و به يقاس درجة وعي المجتمع ومواطنيه. لذا جاءت ورقتنا البحثية هذه لتسلط الضوء على شخصية فلسفية مهمة ساهمت في إرساء القواعد السياسية وتثبيتها من خلال حجج وقواعد دافعت عليها فلسفته، ومن ثم فهم فلسفة توماس هوبز السياسية وتحليلها ضروري من أجل تعرية كل القراءات السلبية التي ألصقت بهذا الفيلسوف وفلسفته.

Article info

Received

21 May 2021

Accepted

22 June 2021

Keywords:

- ✓ *The state*:
- ✓ *the social contract*:
- ✓ *citizenship*:

Abstract :

In the past, the first teacher, Aristotle, considered that one of the most disasters that can afflict societies is the demise of the state, so we find great and increasing interest in this political body, especially in the modern era, and from the Enlightenment philosophers who made the problem of the social contract a paradigm in which the issues can be interpreted and by which the degree of awareness is measured. Society and its citizens.

Therefore, our research paper came to shed light on an important philosophical figure who contributed to establishing and establishing political rules through arguments ad rules that defended his philosophy, and then understanding Thomas Hobbes' political philosophy and its analysis is necessary In order to expose all the negative readings that affixed this philosopher and his philosophy.

* المؤلف المرسل

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

مقدمة:

اعتبرت مشكلة العقد الاجتماعي في العصر الحديث البراديغم الذي تفسر به كل المسائل، وبه يقاس درجة الوعي للمجتمع وقوة الدولة وحكمها الرشيد، فجهد الفلاسفة انصب على جوهرية هذه الفكرة، خاصة بعدما انزاح الفكر من مسائله الدينية الروحية إلى الواقع المدني، فتحول البحث من تثبيت السلطة الروحية إلى تحييدها ومن ثم تقوية السلطة الزمنية، وعليه "عدم خلق أشخاص أجانب عن الدولة بتربيتهم الكنسية، من خلال فرض قوانين مدنية. باختصار هو صنع مواطنين ". (le dug de valmy, 2006,p168) وفي هذا الانتقال حاول الفلاسفة الذين يمثلون هذا الاتجاه الحفاظ بطريقة أو أخرى على فلسفة التقديس سواء للحاكم أم للإرادة الشعبية، وبالتأكيد هنا تغيرت مواقف كل منظر حسب اتجاهه الفلسفي، منهم من نزع القداسة للبابا ووضعها للحاكم، فكانت نظريته في هذا الرباط بين الحاكم وشعبه علاقة حاكم مستبد برعيته، مع نزع نظرية الأصل الإلهي من جوهر الفلسفة السياسية لأننا مع واقع مدني يعايش قضايا الناس اليومية، ومن تنظير أخر يهب للشعب صفة المواطنة ويكون هو السيد في مقابل الحاكم الذي يكتسب شرعيته من مواطنيه. وفي هذا البحث عن تلك المسائل واختلاف الرؤى حولها، حدث الإجماع على وجود الدولة وأهميتها، بل اعتبارها أعظم هيئة في الوجود، دوامها ضرورة قصوى، وغيابها يعني فوضى ودمار غير قابل للتعويض، وهذا ما نلمسه في قراءاتنا لمارتن لوثر Martin Luther و**غروتياس** Hugo Grotius، و**كالفن** Jean Calvin ، و**بودان** Jean Bodin، ثم مع **هوبز** THOMAS HOBBES وغيره من الفلاسفة، لأنه خطأ الرجوع على المكاسب التي حققتها أوروبا في تلك الفترة، عندما استطاعت أن تقف في سلطة البابا والتدين الكنسي، ولا من محقق لهذا التفوق من وجود دولة قوية بمواطنيها، وقد أفصح الملك لويس الرابع عشر عن ميوله لقوة الدولة وهيبتها حينما قال: " في عام 1679: يجب أن تتقدم مصلحة الدولة أولا. و عندما نعني بأمر الدولة فإننا نعمل من أجل ذاتنا فإن خير الأولى يصنع مجد الثانية. كما قال وهو على فراش الموت. إني ذاهب أما الدولة فسوف تبقى دائما " (عروسي سهيل،2010، ص121)، وهذا هو المكسب الذي ناضلت عليه أوروبا، فكيف نُظّر لها، ثم ما هي طبيعة الاتفاق بينها وبين مواطنيها، أي شروط العقد بينها؟ ثم ما طبيعة الحكم الأقرب لصيانة كرامة المواطن؟ الحاكم شخص مستبد أم مفوض خاضع لإرادة شعبه؟ كل هذه التساؤلات اجتهدت عليها فلسفة الانجليز خاصة توماس **هوبز**؟

2. السياق العام لفلسفته:

1.2 توماس هوبز و الفردانية:

إن الفهم الأسلم لنظرية هوبز السياسية يحتم علينا أولا القراءة الكلية والشاملة للنسق الفلسفي الذي اتكأت عليه رؤاه وأفكاره، بداية لا يمكننا إغفال الحراك العلمي الذي شهده عصر هذا الفيلسوف من اكتشافات متنوعة كان فيها للجانب الفيزيائي أثرا جليا، خاصة فيما يتعلق بطبيعة الأجسام والحركة، فهو يعطيه القدر الأهم من المكانة، ويعد جاليليو من رواد هذا العلم، إضافة جعله للرياضيات كمقوم أخر يرتكز عليه نسقه، فقد كان له احتكاك بديكارت صاحب هذا المجال الذي بحث فيه عن اليقين. و هوبز بحث في مجال الفيزياء أو علم الجسم الإنساني وهو المجال الذي يربطه بالوجود والطبيعة البشرية ليضفي الطابع العلمي على سياسته، وبالتالي يكون من الأوائل حسبه المؤسسين للسياسة المدنية، لأن هوبز عمل على الاشتغال بهذه الثلاثية المتعلقة بالجسم والإنسان ثم المواطن حتى تكون نظريته متماسكة ومتسمة بالعلمية، ونظّر لمشروعه بتلك الخطوات على أساس تتويجها بأعمال ومؤلفات تجسدها، وفي هذا الإطار يقول: " لقد جمعت العناصر الأولى للفلسفة، من كل نوع ووضعتها في ثلاثة أقسام بالتدريج، وكنت أود أن أكتبها على هذا النحو، فأعالج في القسم الأول: الجسم وخصائصه العامة، وفي القسم الثاني الإنسان وملكاته الخاصة وعواطفه، وفي القسم الثالث الحكومة المدنية وواجبات المواطنين على هذا النحو "(إمام عبد الفتاح إمام، 1985، ص 85)

AFAK for Sciences Journal مجلة آفاق للعلوم
Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ولم يكتب لهذا العمل التحرير بهذا الترتيب، لأن كتابه المواطن كان أوائل أعماله. و سنحاول في هذا العنصر أن نقبض على جوهر فلسفته من خلال تتبع القاعدة التي ترتكز عليها تحليلاته لهذه العناصر من خلال فلسفته الطبيعية أولا ثم إسقاطها على مجمل أرائه السياسية والسيكولوجية.

لقد فهمت فلسفة هوبز السياسية على أنها ، مؤصلة للإستبدادية المطلقة، بحيث " وبموجب العقد تنمح السيادة لشخص ليمارسها دون قيد أو شرط، لكن اشترط في ذلك حاكما عادلا ". (Janet Paul (1807), P160) وعليه غير منطقي أن تناقش مسألة تحدد الحقوق والواجبات على مساواة وتكافؤ قدره المصلحة العامة، إضافة إلى نقد سلبي ثان يجعل من هوبز المكتشف للطبيعة الإنسانية الدنيئة القائمة على الأنانية وحب التملك والميل للسيطرة، حقيقة نحن أمام جملة من الأحكام التي لحقت بفلسفته وجب توضيحها إما بتصويبها أو بإثباتها وفق لما يدعو إليه نسقه الفلسفي، ومهما يكن من انتقادات وأراء متباينة حول هذه الشخصية، فلا يمكن أن نتجاهل دعواته في تعظيم الدولة وتقويتها، وكذا حال مواطنيها أو بالأحرى رعاياها المتنازلين عن حقوقهم من أجل الحاكم الذي يشكل عظمة الدولة، كما يعتبر الكثير من مؤرخي الفلسفة أن هوبز " يمثل ذلك الانتقال من العقلانية الأرسطية إلى التجريبية البريطانية، وكان تمهيدا لظهور فلاسفة العقلانية في نهاية هذا العصر أمثال ليبتيز وسبينوزا" (Jean Bernhardt, 1994,p05).

ومهما يكن **فهوبز** هو قامة من قامات الفكر الإنجليزي، وقد قال عنه أحد المفكرين بأن " هوبز إن لم يكن باتفاق الجميع، فعلى الأقل عند أولئك الذين يهتمون بالنظرية السياسية، أعظم فلاسفة السياسة الإنجليز، وأشدهم إثارة. وفي قراءة كتابه التنين leviathan متعة لا تقدر ولا عجب فهو على قدر عظيم من الاتساع والتركيز.."(إمام عبد الفتاح إمام،1985، ص 17)لأنه من الفلاسفة الذي ناقشوا المسائل السياسية بواقعية أكثر مدفوعين بذلك من ظروفهم التي جعلت هذا التفكير يكون على هذه الشاكلة، فلسفة القوة والحاكم القوي كلها مبادئ دعت إليها هذه الفلسفات من **ميكيافلي** إلى **هوبز** ثم **نيتشه** وغيرهم في العصر الحديث، و أعتقد في معرفة الظروف السياسية والوقائع التي صاحبت حياة هوبز هي التي تكشف لنا بصورة جلية الإطار الفلسفي والسياق الفكري الذي ساهم في تكوين هذا النسق الفلسفي المتكامل من الجسم إلى الإنسان إلى المواطن، أي من البحث في حالة الميتافيزيقا إلى السيكولوجيا الإنسانية ودواعي الأخلاقية وصولا إلى الدولة وسيادة التعاقد.

2.2 هوبز غياب الأنا في حضرة الخوف:

يعتبر فكر **توماس هوبز** THOMAS HOBBES نتاج لحياته المضطربة، بحيث كانت ولادته غير طبيعية بفعل الظروف الأمنية الخطيرة التي واجهت بلاده، بحيث أن صادف ميلاده التدخل الأجنبي وبالتحديد في عام 1958 " كان فيه الأسطول الإسباني، الأرمادا المزعوم بأنه لا يقهر، يهدد السواحل الانجليزية. لقد كان هوبز، الذي قال عن نفسه: الخوف وأنا توأمان، مبتليا دائما وبشكل غير عادي، بمزاج حساس من الخوف "(جان جاك شوفالييه،2006، ص324.) فكانت حالته غير طبيعية، كما مثلت له " سنوات المنفى حالة ايجابية وخصبة، عادت على فكره السياسي وأثرت فيه".(Jean Bernhardt,1994,IBID.P79) وهو ما برز بعد ذلك في مؤلفاته من نظريته حول القوة والحاكم المطلق، خاصة كتابه الشهير الليفيتان*(**الليفيتان**: من أشهر مصنفات هوبز الفلسفية بحيث عرض فيه أفكاره حول كتابه الأول المعنون بالمواطن وأضاف عليه بعض الأفكار الجوهرية التي تمثل نسقه الفلسفي بصفة وعامة وجانبه السياسي فيما يتعلق بالحكم وطبيعة الدولة والعقد الاجتماعي، وفيه رؤية شاملة على مادة الدولة الدينية والدنيوية، وتعود تسمية هذا الكتاب لما استعاره من سفر أيوب في التوراة، الذي يشير لهذا الحيوان الضخم الذي يمتلك من القوة ما لا تقف في وجهه قوة أخرى، وتعني مفردة الليفيتان السمكة البحرية الكبيرة التي تأكل الأسماك الأقل منها قوة حتى لا يتسنى لها القضاء على الأسماك الأقل من قوة، أي هي شبه للدولة التي تحمي المستضعفين من قوى أخرى تعلوها قدرة وقوة، مثل الكنيسة أو منظمات وهيئات تعتدي على حال الضعفاء، وهنا واجب التنين أو بالأحرى الدولة).

لم تكن فلسفة هوبز تنطلق من العدم، بل ساهم فيها الجو الفكري والعلمي والسياسي الذي كانت تشهده أوروبا آنذاك، ففي الجانب السياسي تأثر بنظم الحكم المطلقة التي تفشت،

AFAK for Sciences Journal مجلة آفاق للعلوم
Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

بحيث كان من أبرز الأنظمة قوة والتي سادت القرن السادس عشر، " فقد بدأت الملكيات المطلقة في الظهور وذلك بعد هدم نظام الإقطاع الذي ظل سائدا طوال العصور الوسطى، حدث هذا في فرنسا مع لويس الحادي عشر، وفي اسبانيا اتحدت أراجون aragon وكاستيل castille بزواج فرديناند وايزابيلا لقيام حكم قوي مطلق، وفي انجلترا انتهت حروب الوردة لكي يحكم هنري السابع حكما مطلقا " (أميرة حلمي مطر،1995، ص59.)

وبالتالي التنامي السياسي للنظام الاستبدادي هو الذي دفع هوبز ليجاري هذا التيار، أي وقوفه مع الملكية المطلقة والدعوة إلى التشبث بها، إضافة إلى فلسفة القوة التي دعت إليها الميكيافلية من خلال الدعوة للحاكم المطلق، والدعوة نفسها عرجت عليها فلسفة بودان عندما دعت لتخلي الشعب عن سيادته لحاكمه، فلا غرابة في أن تقر فلسفة الليفيتان الإقرار بقهرية الدولة كشريعة واقعية في إطار تلك الحروب والمنازعات الحاصلة.

ان الخوف محرك طبيعي دعا هوبز لأن يفكر في أناه بطريقة واقعية تستجيب لتحديات الراهن من دون أن ينظر للجانب المثالي الذي ينتاب في حالات قليلة الطبيعة البشرية، ومن هنا جاءت مجمل أفكاره تخاطب تلك الطبيعة الأنانية والمتجهة بكل قواها إلى المصلحة الفردية، وقد تملكت حياة هوبز حالة الخوف، وانعكست هذه الصورة على رؤيته لبني البشر، " لا أخاف من الأرواح، لكني أخشى ضربة قوية تهبط على رأسي لاعتقاد أحد الأوغاد أنني أضع في غرفتي خمسة جنيهات أو عشرة.."(إمام عبد الفتاح إمام، 1985، ص 41.)فحالة الخوف الذي تملكته انعكست بصورة مباشرة على تنظيره، كتاب التنين بالأمثلة التي تعبر عدوانية الإنسان اتجاه الإنسان الأخر، فالأخر يشكل له الموت أو احد تجليات هذا الموت الذي يعني توقف الحركة والقفز إلى الظلام. لقيت لمصنفاته معارضة وقدمت للحرق، وحذر من مطالعتها أو تدارسها، حياة اكتنفتها الحيطة والحذر والعمل على إبعاد الخوف بضده وهو الأمن الذي يعد ضرورة قصوى للوجود البشري، الذي يعمل على صناعة جهاز يكفل له هذا الطلب الوجودي، إنها الدولة أو التنين القوي. فكيف أسس هوبز فلسفيا لنظريته حول الإنسان الفرد من خلال التأصيل لطبيعته أولا ومن ثم تواجده في إطار الجماعة ثانيا ؟

3.هوبز وانتصار العقلانية:

شكلت كتابات **هوبز** HOBBES وأرائه مجموعة من الأحكام جعلت منه صاحب اتجاهات ومذاهب متنوعة، وضعته حتى في إطار الكفار الملحدين، خاصة من طرف رجال الدين، الذين اعتبروا في فلسفته تهديدا للروح الدينية، لان فيلسوفنا كان يرى تدخل الدين في المجال السياسي أو غيرها بعدا لحالة اليقين التي تصبوا إليها فلسفته، وإن " كان سبب هذا الخوف – حسبه – هو جراء جهله بالأسباب، كما لو كان في الظلام " (توماس هوبز،2011، ص116)

لذا في اعتقادنا ان الحكم الذي يذهب إلى هذا التطرف في تصنيفه لا يعد منطقيا بالنظر للحجج النقلية التي زخر بها كتابه الليفيتان، ولكن الأصح هو اعتباره أن الرياضيات والفيزياء من أكثر العلوم يقينية، ورهن مشروع بناء دولته بذلك اليقين الذي تمتلكه العلوم الرياضية، ومن ثم تحصيل السياسة على قدر من الدقة، وأما اعتبار فلسفته خاضعة للتأثير التجريبي لبيكون ومنضوية تحته، فكذلك لا يستقيم مع محددات المنهج التجريبي نفسه، فلم يبد أية ميول للمنهج الاستقرائي البيكوني، لذا " ليس من العدل أن توصف فلسفة هوبز بأنها تجريبية صرفة " (إمام عبد الفتاح إمام،1985، ص24.). لكن الأقرب إلى كل التصنيفات إذا جاز لنا وضعه في تيار فلسفي معين، فإن توماس هوبز يعد من رواد العقلانية المتأثرين بفلسفة زمانه، حتى عد البعض كتابه المعنون بالمواطن كتابا من تأليف ديكارت، لذا أصل الحقيقة " أن هوبز من حيث المنهج المنطقي لم يتبع بيكون، لقد كان منهجه استنباطيا على غرار منهج الهندسة ولقد كان عظماء الفلاسفة العقليين في هذه الفترة من أمثال ديكارت و **سبينوزا** و **ليبنيز** من أصحاب موهبة ممتازة في الأسلوب الرياضي في التفكير وفي ذلك كان **هوبز** ابن عصره تماما " (إمام، عبد الفتاح إمام،1985، ص25).

AFAK for Sciences Journal مجلة آفاق للعلوم
Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ولعل تقليد هذا الاتجاه العلمي هو ودون شك الوصول لعلم سياسي راسخ رسوخ قيم الرياضيات. لأن مبادئها ثابتة و لا يجادل في حقيقتها العقل، لذا التوتر السياسي والنزاع الحربي مرده لغياب أفكار صادقة رصينة ترتكز على الأسس العقلية، فغابت في نظره النظرة العقلانية للأمور والأحداث، فوقع سوء الفهم نتج عنه بذلك ضرورة الحرب، لذا تكمن حالة الخروج من هذه الفوضى بمنهج سياسي يماثل منهج العلوم الرياضية الذي من خلاله يؤسس لشروط السلام وبعث الأمن من جديد.

اعتبر هوبز أن الفلسفة هي العلم الذي يبحث في الأسباب الأولى للأشياء وعللها، وكان يجعل من الفلسفة العلمية كمصطلح تجري عليه دراساته، فلم ير أن هناك فرق بين الفلسفة والعلم، وهي حقيقة ذلك العصر الذي اعتبر الفلسفة كعلم شامل للمعارف جميعا، وإن كانت بحوثه ترتكز على الجانب المادي منها بصورة أوضح، فالميتافيزيقا مجال لا يمكن للعقل التحكم فيه أو بلغة **ايمانويل كنط**، المجال الذي يتشتت فيه الذهن، كما أن الغاية من استخدام العقل حسب هوبز" ليس في إيجاد مجمل النتيجة أو بعض النتائج وحقيقتها...بل في البدء منها والمضي من نتيجة إلى أخرى". (توماس هوبز،2011، ص52)

عصر فيلسوفنا هو الذي كان يحيل إلى تتبع المادة وتطوراتها، وهذا ما جعلها تنتشر كأفكار صحيحة في الأوساط العلمية، واعتبر هوبز نفسه من دعاة هذه الفلسفة واعتبر ديكارت لما استثنت ماديته الله والنفس هو نوع من المداهنة للحركة اليسوعية التي تربى بين أحضانها، وصحيح لما نناقش فلسفة ديكارت نقف مع عندما مسألة براهين إثبات النفس والله، من دون أن تكلم على مصيرها (النفس) لأنها حسبه من مسلمات الإيمان، وهذا ما لم يكن بوسع هوبز إقراره بحيث اعتبر كل ما يوجد هو جسم، وخاضع للحركة ومن ثم اعتبر أن علم الحركة هو المفتاح لفهم وتحليل الطبيعة البشرية، الذي في رأيه ستتعرض لها هاته الآراء لجملة من الاعتراضات. ووسيلته في التبرير هو العقل الذي يعد مرجعا محدد لماهية هذا العالم والإنسان عامة.

1.3 الإنسان بين الطبيعة البشرية والصنعة المدنية:

لقد رفض هوبز هذه النظرة لحيوانية الإنسان كما أشاعت نظرة المعلم الأول وهو أن الفرق بين الإنسان والحيوان يعود إلى " مصدر تفاضلي واحد وحاسم: تنتمي الحيوانات كليا إلى نسق الطبيعة، ولا تمتلك الكلام الذي ربما ألزمها بتشكيل نسق على حدة، ومنحها وسائل القيام بذلك. إن هذا التواصل المفترض بين الإنسان والحيوان إنما يرفضه الليفيتان " (بيير فرنسوا مورو،1993، ص44.)

والأمر المؤكد أن أرسطو في تبريره لهذه المعادلة هو جعله من النمل وعالم النحل نموذج مثالي شبيه بالحياة البشرية، وهذا ما لا يمكن تأكيده مع مؤلف التنين، لأنه بصدد البحث عن إنسانية الإنسان وماهيته، ثم ما مدى حقيقة اجتماعه، هل يعود ذلك بدافع الطبيعة أم غير ذلك؟

ان الإجابة على هذا الاستفسار ومن دون أدنى شك هو اعتراض على فهم أرسطو للحالة الاجتماعية التي تشكل واقعا طبيعيا له، لكن توماس **هوبز** بصفته صاحب نظرية الفرد والنزعة الفردية Individualism والتي تتنافى في اعتقادي مع المجتمع الذي يعتبر عضوا مكونا له، هذه الفكرة لم تكن معدومة قبل هوبز لكن أصبحت متبلورة وبصورة أوضح معه، وصارت بعد ذلك الحجر الأساسي في التفكير السياسي الحديث. لذا يعتبر " من الفلاسفة الذين أسسوا للفردانية كمذهب فلسفي قائم بذاته، إضافة إلى لوك ورسو" Roger Labrousse,) (1959,p146هذه النظرية التي ترى في المجتمع عبارة عن أفراد مستقلين عن بعضهم، وأن دافع الاجتماع مرده الغريزة وحب البقاء والحفاظ على الذات، وعليه حجج أرسطو في هذا الصدد لا تصمد مع دافعية **هوبز** السياسية، لأن " تفكير **هوبز** في عمقه فرداني: إن ركيزة الاطلاقية، هو حق الفرد في بقائه بالذات. وأصل الاطلاقية هو أنانية متنورة. في الدولة الأكثر تسلطا يعرف الفرد أكمل تطوره. إنه يجد فيها مصلحته وسعادته، ولذته ورفاهته ". (جان توشار،1983، ص263) فغاية الميل للجماعة يعتبر دافعه الأنانية وهذا ما جعل العديد من الباحثين يرون أن الهمجية صفة أثبتها **هوبز** على الجنس

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

البشري ولا أخلاقيته مرده حب التملك والسيطرة، وهذا ما تبتدئ به فلسفة **جان جاك روسو** التي تؤسس للشرور والخروج من حالة الطبيعة الهادئة من أول شخص قال هذا لي وأشار إلى حدود تملكه. وبالعودة لفلسفة هوبز في هذه النقطة المتعلقة بالأنانية والميول، " لأن تركيب جسم الإنسان هو في تبدل مستمر، فإنه من المستحيل أن تسبب الأشياء نفسها فيه الشهية والتجنب ذاتهما دائما، فكيف بالأحرى يجمع البشر جميعا على الرغبة في الموضوع نفسه أيا كان، لكن أيا كان موضوع شهية الإنسان أو رغبته، فإن هذا هو ما نسميه خيرا، وموضوع كراهيته وتجنبه هو ما نسميه شرا "(توماس هوبز،2011، ص، ص62/61)

ان هذه الأحكام القيمية التي تصدر عن رغبة الإنسان وشهيته هي التي تنعت بأنها إنسانية فهي نابعة من تروي وفكر وخاصة به دون غيره من الكائنات، وقلنا سابقا أن فلسفة هوبز مادية علمية تجعل من قوانين السببية مصدرا ليقينيتها، وهكذا فهمت حركة الجسم الإنساني وأجزائه الخاضعة لقوانين ميكانيكية، ولجملة من الوظائف الذي تجعله جسما متميزا عن غيره، " وكان هوبز قد ارتبك عرضا من مسألة الإحساس، كمظهر كاف وحده لتمييز الإنسان عن سائر الأجسام الأخرى، وعالجه بطريقة مختلفة حسب مراحل حياته، ولكن دون تحديد موقف واضح. و تردد بين وجهتي نظر: إما أن الانفعالات وصيرورة الوعي عامة هي صيرورة مادية كغيرها من العمليات الجسدية، وإما أن هناك إمكانية لاعتبار أن عدة عمليات هي فيزيائية تارة ونفسانية طورا " (ماكس هوركهايمر،2006، ص38)

مهما يكن فإن التركيبة الفيزيولوجية والحالات النفسية للإنسان تفهم بطريقة سببية، كأثر وتأثير من الأعضاء المكونة لهذا الجسم، وتلك فلسفته للدولة ونظريتها، علاقة الفرد بوطنه كسببية الأعضاء الإنسانية فيما بينها، وتوضيحا لهذه الجدلية يقول " من يريد دراسة الحق العام وواجبات الرعايا، ليس عليه طبعا أن يفكك الدولة فعليا، بل عليه أن يعتبرها وكأنها مفككة، وبتعبير أخر، من الضروري معرفة خصائص الطبيعة البشرية معرفة دقيقة، والتأكد من الجوانب غير الصالحة لأن تلتئم في دولة، وفي أية علاقات ينبغي على الناس أن يدخلوا مع بعضهم البعض إذا أرادوا التوصل إلى الوحدة " (ماكس هوركهايمر،2006، ص38) نظرة هوبز من هذا المنظور هي ذات طابع منهجي يبدوا استقرائيا في هكذا تحليل، ما دام أنه يرى في تفكيك الجزء وعرفته انطلاقة واضحة في فهم الكل أو الدولة، أو بعبارة أخرى الانتقال من الفرد الطبيعي إلى الجهاز الاصطناعي وهو الدولة. وهذا ما يجعلنا بالضرورة للبحث في الطبيعة البشرية مجددا قصد معرفة مسألة بناء منظومة سياسية قوية تستطيع القضاء على الصراع والحرب، خاصة بعدما فصلنا في قضية إنسانية الإنسان عن مجال حيوانية الحيوان، ولكل ماهيته ودرجة تميزه. " فالإنسان يتميز عن الحيوانات الأخرى بعقله، الذي لا يعتبر إلا حسابا (أي جمعا وطرحا للنتائج)، وبالفضولية والرغبة في معرفة اللماذا والكيف، وبالدين النابع ليس فقط من هذه الرغبة، وإنما أيضا من القلق من المستقبل والخوف من الغيب " (جان جاك شوفالييه،2006، ص325)

2.3 الطبيعة البشرية بين الخيرية والعدوانية:

يعتبر فكر هوبز " أن الإنسان في الحالة القبل اجتماعية كان ذا طبيعة عدوانية أي ذئب homme-loup " Roger) (Labrousse, 1959,p153حتى وإن تفاوتت القوى الطبيعية بينهم، لكن طبيعة الاختلاف لا تحدد من زاوية واحدة، وعليه نجده يقول: " إن الطبيعة جعلت البشر متساوين، في ملكات الجسد والفكر، بحيث إنه إن وجد في بعض الأحيان شخص متفوق جسديا بصورة واضحة، أو يتمتع بفكر أسرع من سواه، غير أن الفارق بين رجل وأخر ليس كبيرا لدرجة أن يزعم أحدهم لنفسه أية فائدة لا يقدر أي أخر أن يطالب بها بالقدر نفسه، فبالنسبة إلى قوة الجسد، فإن الأضعف يملك القوة الكافية لقتل الأقوى، إما بحيلة سرية أو بالتحالف مع طرف أخر يتعرض لما يتعرض له هو من خطر"(توماس هوبز ،2011،، ص131)

AFAK for Sciences Journal مجلة آفاق للعلوم
Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

فالمساواة بهذا التحديد هي قائمة، ولا يمكن جعل التباين في معطى جسدي أو فكري، لأن القدرة على الطموح والإرادة في الندية حتى إن غابت عنها الآلات الجسدية فهناك أكثر من طريقة لتعويضها، وهذا ما يفتح باب التنافس في المعاملات، ومن ثم يضحى الأمر مسموحا ومفتوحا للجميع في صراعهم ضد الكل، إما فرديا أو جماعيا. لذا قلت أولا وتعقيبا على العنوان الذي يفتح لنا باب المقارنة لأي اتجاه تذهب إليه فلسفته، هو أمر واضح الطبيعة المؤهلة للصراع والسيطرة جلية بمفهوم فيلسوفنا، وليس حجة ذلك هو القدر الذي يمتلكه كل واحد من القوة في الجسم أو الذكاء، بل بتلك الإرادة التي تميل إلى القتل وتطمح في وضع الأخر تحت سلطة القهر والطاعة، فتكون الحرب والنزعات، " وطالما أن هذه الإرادة موجودة، فالحرب موجودة وليس السلام والإنسان ذئب للإنسان. مثل هذه الحرب تحول دون كل صناعة وكل زراعة وكل ملاحة وكل رفاهية وكل علم وكل أدب وكل مجتمع وما هو أسوء من هذا كله الخوف المستمر من الموت العنيف وخطره المستمر" (سهيل عروسي، 2010، ص129). هوبز، ومسألة الحرب لا تعني ذلك الصراع الواقع والراهن الذي نعيش لحظاته قتلا وتدميرا، بل حتى استمرارها الوطيد كما يقول، أي استمرار تلك الإرادة في الصراع، وما دام أنها حاصلة، فالخوف وذئبية الناس اتجاه بعضهم البعض لا تنتهي.

ان الطبيعة البشرية مبنية على المساواة في جوهرها، على اعتبار أن الجسد وما يحوزه من قوة لا يعد أمرا حاسما في التفوق، لأن في التحالف والاتحاد كسر لشوكة البدن، كما أن التفوق الفكري والذكاء هو كذلك يصطدم بتفوق من نوع أخر وهو الحكمة والخبرة التي تعلم الإنسان وهي مكتسبة تعوض هذا القدر من التباين، لذا فلسفة هوبز تنطلق من هذا التكافؤ الموجود بين الإنسان وغير من بني جنسه، علاقة قائمة على المساواة في حقيقتها، ومن هنا تنطلق شعلة الاختلاف، وتتبدى " من القدرة في المساواة، تنشأ مساواة في الأمل بتحقيق الغايات، لذلك إذا رغب شخصان بشيء واحد لا يقدران على الاستمتاع به كلاهما. فإنهما يصبحان عدوين، وفي طريقهما إلى غايتهما (وهي بشكل أساسي حفظ نفسهما، وأحيانا تكون مجرد لذة)، يحاول كل منهما تدمير أو إخضاع الأخر" (توماس هوبز ،2011،، ص132).

فالذي يقع أو يكون محركا لعلاقات الأفراد هو شعور بغياب للثقة، وعدم الأمان، ولعل هوبز كشخصية تبدوا غير مستقرة، عانت من هذه اللحظات وربما طول حياته كلها التي تجاوزت تسعون سنة، وهي من لحظة ميلاده إلى أجاله، وهو يعيش ويعاين حالة الغزاة والاعتداء والتملك وانعدام الثقة بين الأفراد والدول حتى. وفي هذا المقام الذي نناقش فيه وجهة نظره هوبز، نقول أن حالة أللأمن بقت ولا تزال هي المحددة لكثير من العلاقات الدولية إضافة للصراعات القبلية والمذهبية والطائفية في كثير من المجتمعات المعاصرة، رغبة في الطموح للتملك، حب للذات، أنانية مفرطة، همجية في تلبية حاجيات الغرائز الطبيعية، نتيجتها القتل بالملايين، التشرد والهجرة بأرقام لا تحصى، دوافع الدمار ولاستقرار واضحة الحب في السيطرة والخضوع، لا أعتقد أن هوبز كان مخطئا أو متطرفا في رؤاه، بل ارتكزت أطروحاته على منطقية وعلمية بالغتين، لأن جوهر التحليل يبدو صارما مع مؤلف كتاب الليفيتان، يكون الغرور وحالة الحذر أولية في الأفراد ثم ينجم من الحذر الهجوم، لان التمني والرغبة الجامحة فينا محرك أساسي في التصرف من أجل الحفاظ على الذات، هي طبيعتنا بهذا الشكل حسبه، واعتقد مصطلحات الخير والشر وكل ما يرتبط به تصرف الإنسان الأولي من أحكام قيمية غير مناسب لحالته الطبيعية الأولى التي يفترض كان قد عاشها، وهذا ما سنوضحه عندما نناقش طبيعة هذه الفترة.

3.3العصر الطبيعي والفردانية:

لعلنا قد التمسنا من خلال تحليل هوبز لفكرته حول الطبيعة الإنسانية على ماديته في تحليله للشخصية البشرية ومدى ميول هذه النزعة، فقد اعتبر " الحركة هي البداية لكل شيء. وبما أن الإنسان جسم يتحرك، فمن حركته يولد الإحساس لديه. الإحساس بالشهوة أو الرغبة هو الخير، والإحساس بالنفور أو الحقد هو الشر. و بينما اللذة هي

AFAK for Sciences Journal مجلة آفاق للعلوم
Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الإحساس بالخير، فإن الابتعاد عنها هو الإحساس بالشر. والشر الكبير يكمن في الموت " (مهدي محفوظ ،2007، ص77) فهذه المعايير المحددة للإنسان وخصوصيته، هي التي تنعكس على واقعه المعيشي إما بالإقبال أو النفور ومن ثم يحدد الفعل أو الترك، فهذه هي الأسس التي كانت عليها حالة الحياة الأولى للإنسان، " حفظ البقاء الخاص بكل فرد سيتصرف بشكل أناني، لا وجود إطلاقا لأي مقياس يتعالى على هذه القيمة، فكل يقرر بنفسه ما يراه خيرا له ". (بيتر كونزمان، 2007،ص 117)

منطق العيش سويا لم يكن واردا بل نحن أمام واقع المصلحة. إن إقرار توماس **هوبز** بالنمط هذا هو حقيقة أمرا افتراضيا انطلقت منه فلسفات العقد الاجتماعي، معتبرة أن هناك تصورا مبدئيا كانت عليه حياة الإنسان مسبقا تفترض حالة الصراع مع **هوبز**، لأن الخطيئة أمر فطري فيه، وهي فكرة مسيحية تشرعها الكنيسة وتجعلها من مسلمات الإيمان، لقد لحق بالجنس البشري خطيئة ادم عليه السلام، عندما أكل من شجرة المعرفة كما يوضح لنا العهد القديم في جزئه المتعلق بسفر التكوين، وبالتالي التوارث هو الذي شكل و أصل لمسألة الشر، ومن ثم تكون دافعية الأفراد الاستحواذ على حقوق الآخرين تلبية لرغباتهم من دون النظر لخصوصية غيرهم وما لهم من حق يمتلكونه، فنظرية **هوبز** السياسية، تعتمد على هذه الحالة الطبيعية التي وفقها تدرس التحولات في المجالات المختلفة وخاصة في الدولة أي الحالة المدنية، ومهما يكن هي مسائل تخمينية لا يمكن تصديقها فيما يتعلق بذلك العصر الطبيعي، ونظرة هوبز التشاؤمية تلك هي نتيجة لما عاشته الإنسانية من صراع وتنازع، ولا يمكن للطبيعة الخيرة أن تصل إلى ما وصلت إليه من عدوانية واقتتال لولا الشر والنزوع نحو المجد والمنافسة وعدم الثقة، وفي كل ذلك غير صحيح من محاولة تبرئة الساحة الإنسانية من الشرور، لأن في الفكر الإنجليزي بالتحديد نجد **لوك** يتعارض مع هذه المسلمة التي تدين بها فلسفة **هوبز**، بالمنافسة يحدث الغزو، و بالمجد يحصل الترف والتفاخر الذي يولد الطبقية والحقد، وبانعدام الثقة يكون الخوف ولا اطمئنان ما يعني بالضرورة أن حالة الطبيعة هي حالة التفرد وحب الذات، هي حالة الاستبداد بكل شيء، وهذا مما يعني غياب السلطة المتحكمة التي تبقيهم في حالة الطاعة والرهبة فيما بينهم " فيكونون في الحالة التي تسمى حربا، وهي حرب بين كل إنسان وكل إنسان أخر. فإن الحرب ليست المعركة فقط، أو فعل القتال، بل هي فترة من الزمن تكون فيها إرادة التنازع معلومة بما فيه الكفاية "(توماس هوبز،2011، ص134)

فحالة الطبيعة هي مرحلة لا تطاق وجب التخلص منها بأسرع وقت من خلال تكوين مجتمع مدني ينظم الحقوق الطبيعية ولا يتركها خاضعة لمنطق الحرية المطلقة، لذا الانتقال من حالة الفطرة المتوحشة بلغة روسو إلى حالة النظام والتعاقد تحت جهاز الدولة عند **هوبز**، هو أمر ضروري لضمان إنسانية الإنسان.

4.3 هوبز و سلطوية الدولة:

أقرت فلسفة هوبز بالحالة السوداوية للمرحلة الطبيعية التي تعني له استمرارها هو قيادة البشرية إلى الفناء بفعل الطبيعة البشرية القائمة على الأنانية والقوة، وجب والحال كذلك إلى التحرر من هذه العبودية المتعلقة بشهوة حب البقاء وغريزة التملك، من خلال إيجاد حالة ثانية تكون أكثر اجتماعية وتنظيما من سابقتها، تضمن له الأمن والبقاء من دون أن يعرض غيره ولا ذاته للخطر، اختراع جهاز جديدا يمثل عنوان لمرحلة ثانية من حياة الإنسان مهم وضروري، لأن الإنسان هو الكائن الوحيد القابل للكمال أي التطور بلغة روسو. فدوافع الإبداع كامنة في الطبيعة البشرية التي تتوق للهدوء والتعايش ولا يوجد هيئة أخرى تضمن له هذا ما عدا الدولة أو التنين كلغة رمزية لها وكضامن للسلام، كما " أن البشر مجبرون بسبب ميل فطري طبيعي على طاعة سلطة عليا أقاموها بواسطة اتفاقياتهم المتبادلة " (THOMAS HOBBES, P128.)

إن بلوغ هذا الهدف حسب **هوبز** يتم بفعل تعاقد أو ارتباط بين الفرد والدولة، وهنا نكون حسب اعتقادي ليس في عقد تنازل لجملة من الخصائص بل لاكتساب قيم لا يمكن أن تماثلها أخرى في الأهمية، إذا كانت فلسفة العقد الاجتماعي لروسو قد علقت على مكاسب يتحصل عليها المواطن في

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الحالة المدنية مقابل لتنازلات تخص مرحلة الطبيعة أو العصر الطبيعي الجميل، فإننا مع مؤلف الليفيتان أمام خطوة لعزة الإنسان وتحقيقا لمعنى وجوده، الانتقال ايجابي حتى ولو كان الحاكم والمسئول عليه مستبدا، لأنه " يتوقف أمن المواطنين على قوة السيد الأعلى المتولد هكذا، فمن مصلحة الجميع إذا أن تكون هذه السلطة مطلقة. والاحتفاظ بقسم من السلطة الأصلية، أو إعادة تشكيل سلطة وسيطة، أو محاولة التخلص من السيد الأعلى (أو الرقابة عليه)، كل ذلك يؤدي إلى تعريض أمن الجميع للخطر " (بيير فرنسوا مورو ، 1993، ص09).

وعلى هذا الأساس يعد الأمر مكسبا للفرد، وجود قوة فوقية تمسك بالوضع وتفرض الأمن على الجميع، الذي يعد حلما في حالة قبل التعاقد، وهذا ما يفتح لنا الباب لمناقشة مرحلة الانتقال إلى الحالة الاصطناعية التي وجدت كحل لمشكلة الطبيعة والحرية المطلقة للأفراد الغير مؤسسة على احترام الأخر وحدود حريته. " لأن الإنسان، إذا نظر إليه في حالته الصافية كفرد معزول، وفي عدم قابليته الطبيعية للتواصل، يتمتع على كل الأشياء، بحق عام ومطلق، حق طبيعي في ممارسة قدراته الطبيعية: وهذا الحق هو الترجمة لقدرته غير المحدودة على استعمال إرادته في السعي وراء السعادة، أي في التحقيق المستمر لرغباته " .(جون شوفالييه، 2006، ص325)

إن هذا المجتمع الطبيعي الذي استنتج **هوبز** أفق عيشه القائم على الأنانية والشره، رأى في الابتعاد عنه ضرورة ملحة، وبذلك كان قد " دفع مفهوم المجتمع المدني إلى الأمام، حيث قدم مذهبا في القانون والدولة رفض فيه نظريات الأصل الإلهي للدولة، واستنتج أو استخلص أن كل سلطة مدنية يجب أن تكون انعكاسا لأصل مجتمع دنيوي. وقد حورب بسبب موقفه الرافض للاشتقاق السلطة المطلقة من نظرية الحق الإلهي، وذلك لأنه رأى أن الوجود الممكن والوحيد للمجتمع يتمثل في المجتمع المدني والمجتمع السياسي المنظم في دولة " (علي ليلة، 2013، ص 25) وبهذا نكون قد فتحنا النقاش من خلال الانتقال الاضطراري للحالة المدنية، حول مسألة الدولة التي يلزمنا معرفة وتحديد طبيعة الحكم فيها ثم تجلياتها المدنية، عندما أقصت الجانب الثيولوجي فيها، وبالتالي من الناحية المنهجية تحديد مفهوم الدين عند توماس **هوبز** يبدوا ضروريا حتى نفهم واقعية تحييد الجانب الديني عن الحاكم. وقبل التعقيب على ذلك نكون قد تبين لنا خصائص حياة الطبيعة ومحدداتها.إن الحالة الطبيعية التي اعتبر ت حالة الفوضى والهمجية، ليست واقعية وإنما تجريد عقلي فلسفي يسبق مرحلة التأسيس للدولة، وعليه حتمية التخمين تبدوا وجيهة حتى تستمد من أصول تكون النواة الأساسية في المشروع السياسي، كما أن الإنسان حيوان سياسي أو مدني بطبعة تبدوا مغالطة قد نظرت لها الفلسفة الأرسطية وقد وجدت لها من يقويها في حقبة توماس **هوبز**، عدوانية البشر والإقرار بها هو تشريع جديد للتربية كعامل حاسم في نجاح مشروع الدولة، وعليه نجد تعقيب **هوبز** على دعوى أن الفرد يولد اجتماعيا بطبعة وكذلك صالحا هي فكرة مثالية في اعتقادي حسبه، لأن خصوصية الاجتماع تتطلب حسما وتوجيها وفي إشارته لتوضيح هذا الالتباس يقول أنه: " ما دمنا نرى الآن مجتمعا منظما بالفعل. فقد يكون من الحمق أن نضع حجر عثرة أمام القارئ فنقول له أننا ننكر أن يولد الإنسان صالحا للمجتمع. ومن ثم لا بد أن أسوق هذا التوضيح:إن الإنسان كإنسان أعني بمجرد ما يولد تتحول العزلة إلى عدو له: فالأطفال بحاجة إلى الكبار لمساعدتهم على مواجهة الحياة.." (إمام عبد الفتاح إمام،1985، ص 320)

ولقد أكد هوبز على أن التحضر يلزمه قوانينه وإجراءاته، فإذا سلمنا بمقولة الاجتماع كحالة إنسانية طبيعة فينا فإن التحول لحالة الدولة ونظامها هي أكثر تعقيدا أو أدق من الاجتماع المحض بلغة **هوبز**، المجتمع المدني يقوم على مواثيق وعهود ضرورية أو تنازل عن حقوق طبيعية أو ترك حرية محددة لشخص الحاكم أو المجتمع، وهو المعنى الفلسفي الذي نستنبطه من همجية الفرد، أي الغير مستعد مسبقا لفهم خصوصية المرحلة، فهم غير صالحين لذلك، فلم يخلقوا مدنيين بطبعهم كما علل أرسطو ذلك " وإن كان الإنسان بالطبع كائن اجتماعي، وأن هذا الذي يبقى متوحشا بحكم النظام لا بحكم المصادفة هو على التحقيق إنسان ساقط أو إنسان أسمى من النوع الإنساني

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

"(أرسطو، 2016، ص95) فالميل والرغبة للتجمع هربا من العنف وطلبا في الأمن ليس مبدءا يضفي الأخلاقية على الفرد، فيلزمه تنشئة اجتماعية وتطويعا بفعل التربية والتعليم، فهو قابل للإصلاح. كما أن حالة الطبيعة تلك قد تشكلت على المساواة أي انتفاء كل لون من ألوان الطبقية، فلا يمكننا إيجاد سيد ومسود، بل عدل كله، لذا نجده يقول: " الطبيعة جعلت البشر متساوين في ملكات الجسد والفكر "(توماس هوبز، 2011، ص131) للهم في القدرة على إثبات الذات وتحقيق المصلحة كل حسب طاقته، وعليه لا مكان لمعايير و أحكام العدل والظلم أو الخير و الشر، لأننا أمام غياب لسلطة مرجعية تفصل بين حدود الحرية وتطبيقاتها، نحن أمام غياب لمنطق القانون وبالتالي غياب الظلم والاستبداد. وفي هذه النقطة التي تشير إلى السلطة المكرهة التي تسعى لضبط الحال، نجد اتفاقا شبه واضح بين **روسو** و **هوبز** ويتعلق " بعقم القانون الطبيعي العملي طالما لا تدعمه القوة المادية إلى مدى تأثر الأول بالثاني في وضع النبرة على القوة في تسيير التصرفات الإنسانية تسييرا مضمونا مؤتمنا. وفي هذا يكمن جوهر واقعيته – على ما يتخلل هذه الواقعية من انغمام مثالية عقلانية " (ملحم قربان، 1989، ص51)

4. جدلية الدين والدولة:

1.4 السلطة الوحية في مقابل السلطة الزمنية:

لقد تعددت الأحكام على الرؤية الدينية لتوماس هوبز في فلسفته بصفة عامة، وجزئيتها المرتبطة بالدولة في شقها الثاني، أما بخصوص محاكمة تدين هذه الشخصية فهي مثار اختلاف وعدم اتفاق، وفي اعتقادي أن هوبز نفسه كان من مجددي المنطق الديني وكيفية توظيفه، وهذا ما لف حوله غموضا أخرجه من دائرة الكفر أولا أو اعتبره من رواد الإيمان المسيحي ثانيا، ومهما يكن فإن جدلية الدين والدولة، أو السلطة الروحية في مقابل السلطة الزمنية هي الأخرى تحتاج لتوضيح أكثر وكيفية فهمها في النسق الفلسفي السياسي لتنظير هوبز، أولا مما لا شك فيه أن البعد الديني في مؤلف الليفيتان يظهر بقوة وبحجج نقلية تتكئ عليها فلسفته لتوضيح مكانة التدين في الخارطة السياسية، وعند وضعنا للعنوان جعلنا الدين في مقابل الدولة، أو بالأحرى نحن نبحث على إجابة مفهومة تنير لنا أسبقية أي سلطة نثق في تنظيم لها لحياتنا، ولعلى الرد على هذا الغموض يبدوا واردا في كتاب الليفيتان نفسه، وبالتحديد في صورة هذا الكتاب الذي يفك لنا تقريبا كل الرموز المرتبطة بنظريته حول الدولة وموضع كل السلطات الممكنة تواجدها فيها، حقيقة أن اللفظ المسمى به الكتاب هو لفظ عبري يحمل دلالة رمزية على عظمة هذا الحيوان الضخم الذي يتفوق على كل شيء، وهو اقتباس من الموروث الديني، ورد في سفر أيوب في الكتاب المقدس، " فموضوعه هو إقامة الدولة القوية المنيعة التي تقضي على كل ضروب الفوضى والاضطراب، والفتن والحروب الأهلية " (إمام عبد الفتاح إمام، 1985، ص 286) نحن أمام قوة إلزامية من مهامها الإشراف على الأمن لأنه يمتلك القدرة على ذلك، وهي الدولة المقصودة بهذا الدور وليس الدين، فالمتأمل لصورة الكتاب يرى " عملاقا يملك غزير الشعر، يضع على رأسه التاج، ويحمل السيف في يده اليمنى، فهو الذي يملك القوة، ويسن الشرائع، ويضع القوانين، ويعلن الحرب، ويشن المعارك..ثم نرى العملاق، من ناحية أخرى وهو يحمل عصا البابوية في يده اليسرى، ومعنى ذلك أنه يشرف على الكنائس والأمور الروحية، والمسائل الدينية بصفة عامة (إمام عبد الفتاح إمام، 1985، ص 287).

وعليه لم يكن التنين هذا اللفظ الرمزي يعني الحاكم أو الملك كما تذهب بعض التحليلات، ورأت أن فلسفة **هوبز** كانت تعني الملك شارل الثاني أو غيره، لكن في المحصلة فإن الدولة هي سلطانة الدين والدولة.

يعد مفهوم الدين عند **هوبز** مهما وركيزة أساسية حول مفهومه للدولة الدنيوية، لأن المسألة الدينية خطيرة لما أنها تبقى المحرك الأساسي للحرب، والحفاظ على السلم الأهلي، ولعل الصراعات الدينية التي كانت بين الدول والشعوب أمر جعل **هوبز** ينظر إلى هذه الإشكالية بجدية، ويعتبر معالجتها أمر حاسم، والدين أكثر من ذلك هو ظاهرة إنسانية وجب البحث فيها وتقنينها، فلا " وجود لعلامات ولا ثمار الدين إلا في الإنسان وحده، لا سبب يدعونا للشك في أن بذرة الدين هي

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أيضا موجودة في الإنسان فقط، أو هي تقوم على صفة مميزة، أو على الأقل على درجة من هذه الصفة، لا وجود لها في المخلوقات الأخرى " (توماس هوبز،2011 ، ص114)

فالتدين حالة إنسانية، لكن الذي يرتبط بالتدين هو الخوف وهي حالة مصاحبة للإيمان، فقد يكون وراء هذا الإحساس هو غياب المعرفة الكاملة للظواهر، فصحيح أن الآلهة خلقت في الأذهان عند الأوائل نتيجة غياب العلم، أما فيما يخص الإله الواحد فقد تكون معرفته أسهل من خلال البحث عن الأسباب الحقيقة للأجسام الطبيعية وطرق عملها، لذا كما قال توماس هوبز أن " الخوف المستمر الذي يصاحب الجنس البشري دائما هو جراء جهله بالأسباب، كما لو كان في الظلام، لا بد أن يكون له موضوع ما، وبتالي عندما لا يكون هناك شيء مرئي، لا يكون هناك ما يتهمه المرء بحظه الحسن أو السيئ، باستثناء سبب أو عامل غير مرئي ". (توماس هوبز،2011 ، ص116)

ويبدوا لنا الكلام نفسه نجده عن الفيلسوف الألماني فيورباخ لما يناقش الظاهرة الدينية وتبريره لكيفية نشوءها، " فالطبيعة هي الموضوع الأصلي الأول للدين كما يبرهن على ذلك تاريخ كل الديانات والأمم. فالتأكيد بأن الدين فطري بالنسبة للإنسان زائف إذا تطابق مع الثيولوجي، ويكون صحيحا تماما إذا كان الدين هو الشعور بالتبعية الذي يدرك فيه أنه لا يستطيع الوجود بدون كائن أخر مختلف عنه، وإذا فهمنا الدين هكذا فإن هذا الكائن يكون ضروريا بالنسبة للإنسان كضرورة النور بالنسبة للعين، والهواء للرئتين ". (فيورباخ لودفيج ، 1991، ص28)

وهذا الطرح يقترب في المعنى لما قال به **هوبز**، عن الدين كتسليم بخوارق والرضوخ لأحداث طبيعية والسبب في ذلك يعود إلى جهلنا بحقائقها وأسبابها، فتبقى لخلق الأعذار من هذه القوة الطبيعية كرهبة يجب إرضاؤها، وهذا هو الدين بمفهومه الضيق، ولا يمكن أن ننكر خطورته وتأثيره على الواقع الحياتي، من خلال سلوكيات قد تؤدي إلى العنف والقتل وإشعال الحروب، فلخطورته وجب تحديد دوره وهذا هو لسان **هوبز**، فصل بين السلطة الزمنية والروحية بين الدين والدولة، بين الأخلاق والسياسة، فكنا بذلك قد تجاوزنا النظرة الايتوبية للدولة، التي تعمل على جعل مواطنين فضلاء، أو منطق الدولة الدينية الذي يهتم بتوحيد كلمة المؤمنين على معتقد واحد، إننا مع مؤلف الليفيتان أمام سياسة واقعية. " دراسة للواقع الذي يعيشه الناس بما ينطوي عليه من مشكلات...حروبا أهلية طاحنة استمرت سبع سنوات، عانت فيها البلاد من ضروب شتى من الفوضى والاضطرابات، مما جعل الفيلسوف يبحث عن وسيلة لمنع تكرار هذه الأحداث المؤسفة، والفتن التي طحنت الناس ولم تجعل المواطن أمنا على نفسه، أو ماله أو أسرته "(إمام عبد الفتاح إمام،2002، ص277).

لقد وجد التنين كسلطة أحادية تبسط قوتها على الجميع، ولا توازيها في السيطرة أية قوة، فصورة الكتاب هي التي ترمز لعملية الحكم، " فالنصف الأول من جسم هذا العملاق يرف على الأرض: الحقول، والصناعة والزراعة والمدن والقرى والكنائس والمجامع...وكل شيء في المجتمع. أما النصف الأسفل من الصورة فنجد فيه مجموعة من الصور الصغيرة وضعت في صفين متوازيين: الصف الأول يرمز إلى مجموعة من الصور المدنية. والصف الثاني لمجموعة أخرى مقابلة لها من الرموز والشارات الدينية " (إمام عبد الفتاح إمام،2002، ص275).

وفي ذلك رمزية كبيرة ودلالة واضحة على قدرة الدولة الكاملة على قيام بدور الرقابة والعدل. فوجوب خضوع السلطة الروحية للسلطة المدنية ضروري حتى نتفادى أخطاء الأمم السابقة، وحتى المجتمع الانجليزي، الذي كان في مواجهة بين المذهبين المسيحيين، أو في مواجهة سلطة روما الكاثوليكية. و في دور الدولة المناط بها القيام به وهو الحفاظ على بنية المجتمع وتماسكه، لن تجد صعوبة في توضيح مسألة تطبيق القانون كصفة مطلقة تخصص قوانين المدنية بما فيهم الطبقة الدينية، ولن تغضب المؤمنين بحريتهم في الاعتقاد والإيمان كيفما كانت طبيعتهم، الواجب في الإيمان عدم فرضه على واقع الحياة السياسية أو الدنيوية، علمانية الدولة لا تضر بحالة الإيمان، فهذا الأخير أمر داخلي ذاتي يخص الفرد نفسه، وحتى ما يخص الحياة

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الخارجية، أي أحوال المجتمع المدني فهو ينبني على قوانين الطبيعة أو القوانين الإلهية المتعارف عليها، كحق في الأمن والحياة والحرية إذا لم تتعارض مع مصالح الغير. لكن مع ذلك يبقى للدين جانب سلبي رفضتهم فلسفة توماس **هوبز**، وهو في اعتقادي ما جعل بعض رجال الدين يثورون عليه، فكانت مواقفه من مسائل الإيمان الخرافي عنيفة جدا، إننا أمام مملكة للظلم و الظلام.

2.4 المسألة الدينية:الحرية الفردية بين الحقوق الطبيعية والقوانين المدنية:

لقد تضمن كتاب **الليفيتان** leviathan لتوماس **هوبز** في أخره جزئية مهمة، كان قد تنبه لها غداة تحليله لفلسفته السياسية الجديدة، حول قضية جوهرية كانت سببا رئيسيا في غياب الأمن ولا استقرار في انجلترا، وهو الصراع الديني الناجم عن سوء فهم لطبيعة الدين المسيحي ورسالة السيد المسيح عليه السلام، وظلت القضية الدينية في صلب المشاكل التي تعاني منها أكثر الشعوب قديما كان أو حديثا، من خلال تتويج تلك الاختلافات إلى صراعات دموية، سواء كان ذلك من سوء الفهم للكتاب المقدس بصفة عامة خاصة الرسالات الإبراهيمية (اليهودية، المسيحية، الإسلام)، أو كان سبب الاقتتال هو تدخل السياسة وتوظيفه لأغراض إيديولوجية، ولعل قراءة هوبز في مؤلفه التنين لخطورة الدين، منطلقة أساسا من الفهم السيئ للمعتقد الإيماني والفشل في تفسيره، والذي يعني حسبه أننا في مملكة للظلام تنبني على أفكار خاطئة شيطانية، والذي يعتنق هذا الفكر المظلل ويعيش تحت سلطته هو ابن لهذه الظلمة، الذي يعني بالضرورة غياب النور الإلهي. والذي يجعل من الدين حقيقته الجوهرية هو المؤمن حقا أو ابن النور بلغة هوبز، " فمملكة الظلام، كما تحددها هذه المواضيع وغيرها من الكتاب المقدس، مجرد اتحاد للمخادعين يحاولون السيطرة على البشر في هذا العالم، وذلك بأن يطفئوا فيهم النور – نور الطبيعة ونور الإنجيل – عبر عقائد مظلمة وخاطئة، لإحباط استعدادهم لمملكة الله الآتية "(توماس هوبز،2011، ص ص580/579)

فمعرفة النور الإلهي ضرورية لتجاوز الأخطاء المرتبطة بالتصورات الماورائية التي ترتكز على الخوف وإدخال علم الشياطين والعقائد العجيبة التي تخرج المؤمن عن حالة الوعي وتجعله في عالم الهنالك، وقد يقتل من اجل أفكاره الظلامية، تلك مملكة الظلام التي ثارت عليها أراء هوبز وجعلت من الدين كمعتقد إيماني ذاتي، وعامل مهم يدفع بالفرد إلى التحرر والتمتع بالحرية الطبيعية وكذا ما تجيزه قوانين الدولة، وليس وسيلة لسيطرة والاستغلال، وهذا ما يجعلنا نناقش هذه النقطة التي تشكل جوهر قيم المواطنة الحديثة.

لفهم فلسفة الحرية عند هوبز بصورة دقيقة ، يلزمنا معرفة الأطر التي وفقها فهم هذا المفهوم عنده، وعليه فالهيكل الصناعي المهم في هذه النقطة هو الدولة، لأن هذه الأخيرة هي الراعية الحقيقية لموضوع الحرية بين الأفراد وآليات تطبيقها، فمفهوم الدولة ومبررات نشأتها نقاط مهمة تسهل عملية تحديد حدود حرية المواطن وكيفية ممارسته لها.

إن مناقشة هوبز لمسألة الدولة سيكون أمام اعتراض أرسطي ثاني يعتبر في وجود كنتيجة تطور طبيعي لها من العائلة إلى القرية ثم المدينة، لأن الإنسان مدني بطبعه، لكن مع صاحب كتاب التنين، الفهم يختلف والمبررات متباينة، إن وجود الدولة في الأصل هو قصدي واتفاقي أو تعاقدين الغرض منه هو بلوغ الأمن والسلام، أو هي " السبب النهائي، والغاية وهدف البشر (التواقين بطبيعتهم إلى الحرية وممارسة السلطة على الآخرين)، من خلال فرض قيد على أنفسهم، (والذي يجعلهم يعيشون في قيد في إطار الدولة)، يكمن في التحسب لما يضمن المحافظة على أنفسهم وتحقيق المزيد من الرضا في الحياة. وبعبارة أخرى يكمن هدفهم في الخروج من حالة الحرب البائسة هذه التي، هي نتيجة للأهواء الطبيعية التي تسير البشر" (توماس هوبز، 2011، ص ص،176/175)

ان ضبط الدوافع الغريزية الطبيعية والتي تمثل نوع من الحقوق الطبيعية أمر ضروري وتكون الدولة هي المسئولة عليه، ومن دون أن يسفر تدخلها هذا لأن يتنافى مع قيم الحرية، والتي تعد حقا طبيعيا لكل إنسان مواطن. ومن هنا قبل أن نعلم

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الحرية ومفهومها يجب أن نوضح ماذا نقصد بالحق وكيف يكون مع أو ضد تطبيق القانون، لأن في هذه الجزئيات تحدد صيغ الحرية للأفراد، أولا " الحق الطبيعي كما يسميه الكتاب عادة، هو الحرية الممنوحة لكل إنسان في لاستخدام قواه الخاصة للمحافظة على طبيعته الخاصة أعني للمحافظة على حياته، وبتالي حريته في أن يفعل أي شيء يكون في تقديره، أو يتصور عقله أنه أنسب الوسائل لتحقيق هذه الغاية.، انأ لا أعني بكلمة حق شيئا أخر سوى الحرية الممنوحة لكل إنسان لأن يستخدم قدراته الطبيعية "(إمام عبد الفتاح إمام،1985، ص ص،334/333).

وكلمة الحق هي ذات دلالة واسعة وعندما يستعمل **هوبز** الحقوق الطبيعية فإنه يقصد بها تلك الحقوق الضرورية التي لا يمكن للإنسان أن يكون من دونها. ولكن في مقابل الحقوق الطبيعية هناك قوانين طبيعية والتي تلزم وتحدد أو تأمر وتنهي، فمساحة الحق الطبيعي تتسم بالحرية أن تفعل أو لا تفعل وفق مقدراتك الشخصية، لكن القانون الطبيعي حرية الاختيار عنده ملزمة ومحددة، صحيح هو تزاوج للشعور بين الحرية والخوف، أو بالأحرى هما متطابقان، لماذا؟ لأن الحرية بمفهومه تعني غيابا للمعارضة، أو عدم وجود أي حائل يمنع الحركة، هذا إذا كان الحديث عن الأجسام الطبيعية، أما الفرد أو الكائن الإنساني نقوله عن أنه حر إذا كان يمتلك مقومات الفعل، فمثلا عندما يقال: " أن الهبة حرة، فليس المقصود أن الحرية هي الهبة، بل في الشخص الذي يقوم بها، دونما إكراه من قانون معين أو اتفاقية معينة كذلك، وعندما نتكلم بحرية، ليس المقصود حرية الصوت، أو اللفظ، بل حرية الشخص الذي لم يرغمه أي قانون على التعبير بأسلوب مختلف عن الذي اعتمده " (توماس هوبز،2011، ص217)

وفي ثنايا هذا التوضيح لما نفهمه على الحرية يكون الخوف من تطبيقها أو لا، متزامنا، وهذا هو التناقض الذي كشف عنه هوبز من خلال جدلية القانون الإلزامية، وحدود الحرية الإنسانية المشكلة لكينونته، مثلا " تسديد الديون أحيانا، خوفا من دخول السجن، وهو عمل شخص متمتع بالحرية، لأن الاحتفاظ بالمال لا يعوقه عائق، فبصورة عمومية وفي كل الدول، تكون كل الأفعال المنفذة خوفا من القانون، أفعالا صادرة عن أشخاص يملكون الحرية في عدم القيام بها "(توماس هوبز،2011، ص217).

5.الخاتمة:

إن القوانين الطبيعية التي تنادي بها فلسفة هوبز تستمد مشروعيتها من المصدر الإلهي، وهي مبادئ فطرية تنادي بها الفطرة السليمة، العدل، الرحمة، الحفاظ على الذات، الطاعة...كلها أسس تحاول الدولة المدنية المتجسدة في شخص الحاكم كالأنظمة الملكية أ و الجماعية (الديمقراطية) على صيانتها بفعل قوانين، بحيث تكون الضامنة على تجسيدها، من دون أن تضفي عليها الطابع الديني، فهي المشرع له، والتي تحافظ على صيغته المدنية له.

وبذلك فان الحاكم المطلق الواعي هو الشخص الذي كانت تأمل فيه فلسفة توماس هوبز لأن يجسد أطروحاته السياسية التي يكون من شأن تجسيدها على الأرض الواقع أن تنهض الأمم وتحافظ على عزة مواطنيها وحقوقهم، فإذا كان التعاقد عنده يعني تنازل مجموعة من الذوات على تسيير إرادتهم إلى شخص الحاكم، فإن المقابل لهذا التنازل هو وجود الأمن، ومن ثم المواطن في حكم الحاكم المطلق، لا يعني بالضرورة استبدادا، كما إلزام الحرية بطابع القانون لا يعتبر قهرا بقدر ما هو حرية كاملة، توفر فيها شرط الاختيار المبني على العقل والذكاء والمصلحة الفردية، لا يعترض في ممارستها أي عارض، اللهم تزامنها بالخوف الذي يعد حالة شعورية ترادف القيام بالفعل أو تركه من دون أن يكون قهريا. وبذلك نكون قد توصلنا مع هوبز إلى فلسفة سياسية جامعة لكل شيء وفاصلة في أمور دقيقة، أبرزها جعل السياسي والأخلاقي بينها خيط رفيع إلا أنه لا يلتقيان كما أن الحالة الدينية قد قومت أسسها وأعيد للدين جوهر وحذرت فلسفة هوبز من مملكة الشيطان أو الظلام التي تأخذ من الإنسان جوهريته وهي الحرية، لصالح دعاة المصلحة الفردية، كما أن الحاكم وإن كان مطلقا فلا يستمد إطلاقيته من القدسية الدينية، بل كان للشعب في تنازله

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

عن إرادته المعين على تقوية أسس الدولة، وفي الأخير يمكننا اعتبار مع هوبز أن الأمن والابتعاد عن التناحر الديني من أبرز أهداف الدولة ومن أقوى مبررات وجودها على الإطلاق، وفي ذلك تحفظ أبرز الحقوق الطبيعية لأفراد وهي البقاء والمحافظة على الذات، ومن أقوى المبادئ المدنية هو الحرية في كنف سلطة القانون.

إن كثيرة هي النقاط الذي أثارتها فلسفة **هوبز** ودارت حولها النقاشات، لم تكن محل قبول أو اتفاق، بل وجدنا في أحيان أخرى معارضة شبه مطلقة، ولعل من يمثل هذا الاتجاه في الفكر الإنجليزي **جون لوك** الذي وضع أعمالا في هذا المجال لتقويم الآراء السابقة، وأصول لأفكار سائدة، وهذا ما جعله غير محل للرضا بين أطراف الحكم، وبالتحديد الطبقة الملكية.

اختلف لوك مع هوبز في مسألة الحالة الطبيعية التي لم ير فيها مجالا للفوضى، بل فترة نظام وحرية، ولم تكن فلسفته في العقد الاجتماعي شبيهة من حيث المضمون معه، ودافعت نظريته عن الحرية السياسية والدينية، وناقش مسالة الملكية وطبيعة العلاقة بين المواطن ودولته، وجعل للمرأة فيها رأي لنا فيه نظر.

قائمة المراجع:

1. أرسطو طاليس(2016)، السياسة، ترجمة :احمد لطفي السيد، ط1، بيروت، المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات.
2. إمام عبد الفتاح إمام(1985)، توماس هوبز، فيلسوف العقلانية، الأزهر ،مصر،دار الثقافة للنشر والتوزيع.
3. إمام عبد الفتاح إمام(2002)، الأخلاق والسياسة، دراسة في فلسفة الحكم، ط1،مصر،مجلس الأعلى للثقافة.
4. بيتر كونزمان- بيتر بوركارد،(2007)أطلس الفلسفة، ت: جورج كتورة، ط2 ، بيروت، لبنان،المكتبة الشرقية، الجسر الواطي.
5. هوبز توماس،(2011)، اللفياثان. الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، ت: ديانا حبيب حرب،ط1، الإمارات العربية المتحدة ،هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.
6. هوركهايمر ماكس،(2006)، بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية، ت: محمد علي اليوسفي، بيروت، لبنان، دار الفارابي .
7. مطر أميرة حلمي (1995) الفلسفة السياسية من أفلاطون إلى ماركس،ط5، القاهرة، دار المعارف.
8. مورو بيير فرنسوا،(1993)، هوبز، فلسفة، علم، دين: ت، أسامة الحاج،ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع.
9. محفوظ مهدي،(2007)، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، ط3، بيروت، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
10. ليلة علي،(2013)، المجتمع المدني العربي، قضايا المواطنة وحقوق الإنسان، ط2، القاهرة ،مكتبة الأنجلو المصرية.
11. عروسي سهيل،(2010)، من قضايا الفكر السياسي المواطنة أنموذجا، دمشق، سوريا، منشورات إتحاد الكتاب العرب.
12. توشار جان،(1983)، تاريخ الفكر السياسي، ت علي مقلد،ط2، بيروت، لبنان ،الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع.
13. شوفاليه جان جاك،(2006)، تاريخ الفكر السياسي، من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ت محمد عرب صاصيلا، ط5، بيروت، لبنان، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع.
14. فيورباخ لودفيج(1991)، أصل الدين، ت: أحمد عبد الحليم عطية،ط1، بيروت، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
15. قربان ملحم(1989)، الحقوق الإنسانية فعل التزام، ط1، لبنان ، بيروت ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
16. Hobbes Thomas, (1649), Elemens philosophiques du citoyen: traicté politique, ou, les fondemens de la société civile sont descouverts, Volume 1. Couverture ,amsterdam de limprier de leanblaev.
17. le dug de valmy : (2006),l'eglise et l'état ; au dix-nouvième siègle ; parisgranière freres.libraires- éditeures.
18. Roger Labrousse,(1959),Intrduction A la philosophie politique, paris ,Librairie Marcel Rivière et gie.
19. Janet (Paul) , (1807),Histoire de la science politique dans ses rapports avec la morale, paris, 5ieme ed,.
20. Jean Bernhardt(1994), Hobbes(que sais-je), deuxiéme édition corrigée , France ,presses universitaires de France.editions delta.

AFAK for Sciences Journal مجلة آفاق للعلوم
Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)